## 7 – من تراث الصحيفة نشر في عام 1964

# شخصية الأستاذ إسماعيل القباني (•)

**أ.د. عبد العزيز القوصي**

إنني حين أتحدث عن شخصية المغفور له الأستاذ إسماعيل القباني لا أريد بطبيعة الحال أن أنمق الألفاظ، كما يفعل الناس في مثل هذه المناسبات، وإنما أريد أن أكون موضوعيا، ذلك لأن موضوعية الدراسة لمثل هذه الشخصية تحوي من الروعة أكثر مما تحويه الألفاظ المنمقة.

شخصيته بوجه عام: وتذكرني شخصية الأستاذ الدكتور إلى حد ما، بشخصية الأستاذ لطفي السيد، ذلك لأن لطفي السيد أثر بسلوكه وتصرفاته وأعماله أكثر مما أثر بما نشر أو ألف، ولا أقصد هنا أن أبين نقطة مشتركة من حيث نوعها لا من حيث درجتها، فالأستاذ القباني لم يؤلف كثيراً، ولم ينشر كثيراً، ولم يتكلم كثيراً، ولكنه كان يعمل، وكان يؤمن بطريقة التفاعل المباشر بين عقل وعقل، وبين روح وروح، ويمكنني أن أقول إنه طبع أجيالاً وأجيالا من المربين عن طريق تأثيره الروحي، وتأثير إيمانه وعمله وفكره.

أخلص من هذا إلى أن الأستاذ القباني لم يؤثر بقلمه ولسانه بقدر ما أثر بعقله وروحه وعمله، ولست أريد بهذا أنه لم يحاضر ولم يدرس ولم يكتب، وإنما أقصد أن ما نشره وما ألقاه كان مجرد قطرات من قبض زاخر كان يحص به أمثالي من تلاميذه ومريديه.

ولعل سائلاً يسأل، وهل عرفته مدة كافية حتى نصفه هذا الوصف وحتى نكون دقيقاً فيه؟ وأجيب عن هذا بأنني عرفته أربعة واربعين عاما كاملا.

---

(•) أ.د. عبد العزيز القوصي (1964)، شخصية الأستاذ إسماعيل القباني، صحيفة التربية، السنة السادسة عشر، العدد الثاني، شهر يناير.

القباني المدرس عام (1919): فحين قامت ثورة سنة (1919) كنت تلميذاً في السنة الرابعة الابتدائية بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بأسيوط وكان هذا قبيل انتهاء العام الدراسي بشهرين تقريباً، وحدث أن مدرسنا في اللغة الإنجليزية المرحوم الأستاذ/هلالي على كان قد اشترك في الثورة كواحد من كبار محركيها وزعمائها،وحكمت عليه المحكمة العسكرية بالإعدام فأطلق لحيته وتنكر في زي بائع متجول، وحمل على كتفيه حزمة من البصل وأخرى من الثوم، وانطلق في سبيله ينادي ببيع ما يحمل، وظل هكذا حتى ضعف جسمه واعتل قلبه وتورمت قدماه ثم مرض ومات، وقد بكته أسيوط وما زالت تبكيه.

وعندما هرب الأستاذ هلالي على أصبحت فرقتنا على حد تعبيرنا "يتيمة" لا مدرس لها، وظهر في أسيوط في ذلك الوقت شاب يتأجج ذكاءً ونشاطاً ووطنية اسمه "إسماعيل أفندي القباني"، وكان قد عاد من البعثة – حسب ما سمعنا – بسبب صحي وعرفت كل أسيوط بعودته، وجرى الحديث عنه في الأوساط المختلفة، وأعجبت به لما سمعته عنه، وكان في الحادية والعشرين من عمره.

وسرعان ما عرفت أنه كان يجالس الشيخ عبد الرحمن تاج، والأستاذ إبراهيم مصطفى، والأستاذ محمود الدرويش، والأستاذ محمد عبد الحافظ، وذلك في "دكان" صغير يبيع الثلج والقازوزة لصديق اسمه الشيخ محمود النجار، فكنت أراقبه في غدوه ورواحه، وكان هذا كل ما كنت أملك إزاء بطل ظهر حديثاً في حياة غلام مثلي في بلد صغير كأسيوط.

وبعد أيام قليلة دخل علينا، في فرقتنا، الأستاذ الشيخ إبراهيم مصطفى ومعه الأستاذ القباني، وأبلغنا إنه قد تطوع بأن يعلمنا إنجليزية بدلا من الأستاذ/ هلالي على، وبذلك أكون أول من تتلمذ عليه، وأكون بحق ابنه البكر، كما ذكر الأستاذ الدكتور/ سيد محمد باشا في كلمته التي ألقاها في كلية التربية في تأبين الفقيد.

ومنذ ذلك الحين بدأت بيني، وبينه علاقات أخذت تتوثق يوما بعد يوم، وكانت تسعد بالمد أحيانا، وتتعرض للجزر أحيانا أخرى، ومع ذلك فقد كانت تتصف بصفة واحدة وهي أنها كانت شبيهة بعلاقة الأخ الأصغر بشقيقه الأكبر.

من أيامه الأولى في التدريس: وأذكر بوضوح أن أول شيء قام به بعد أن تتطوع بتعليمنا الإنجليزية، هو أن طلب إلينا أن نذكر له أسماءنا، فأبدى قوة في التذكر كبيرة إذ أعادها جميعها بعد أن سمعها مرة واحدة، دون أي خطأ، وكان عددنا حوالي الثلاثين، ثم أخذ ينادي كل واحد باسمه، فهذا قوصي، وذاك فرغلي وثالث جلال إلى غير ذلك من الأسماء ثم كتب على السبورة 4321=صفر، وطلب إلينا أن نضع +5- لنحصل على هذه النتيجة، واستخدم هذا النوع من الأمثلة ليختبر ذكاءنا، لنحصل على هذه النتيجة، واستخدم هذا النوع من الأمثلة ليختبر ذكاءنا، وليعرف الفروق بيننا، وليعودنا على طريقته في التدريس من توجيه الأسئلة واستقبال الإجابات وغير ذلك، وما كاد ينتهي الدرس الأول حتى كان قد عرف كل واحد منا، وشعر كل تلميذ في فرقتنا أنه يعرفه، وحتى تكونت علاقة وثيقة بينه وبين تلاميذه، وقد ظل بالنسبة لي كما عرفته في الدرس الأول، شديد اليقظة، متوقد الذكاء، سريع الحركة، دقيقاً حازما، عطوفا، كبير القلب، وهكذا استمر أسلوبه طوال حياته كمدرس وأستاذ.

وكان من طبيعته أنه إذا فكر في فكرة استغرق فيها حتى يستوفيها درساً، وإذا بدا عملاً فإنه يتابعه حتى يتمه، ومن هنا كانت النهايات عنده أهم من البدايات، فكان يتأخر في الوصول إلى حجرة الدراسة لبدء الدرس ولكنه كان يصر على إتمام ما جهزه من عمل، ولم يكن قبل كذلك إن كان يترك حجرة الدرس قبل أن يتم عمله، ولم يكن يلقي دروسه، وإنما كان يستنبطها من تلاميذه فهو يفكر معهم وهم يفكرون معه، هكذا معهم وهم يفكرون بعضهم مع بعضهم الأخر، ويفكرون معه، هكذا علمني وعلم تلاميذه العلوم الرياضية وعلم النفس والتربية وتاريخ التربية وطرق التدريس.

وعندما عرف تلاميذه عنه حب التفكير والاستنتاج فإنهم كانوا يجهزون أسئلة يلقونها عليه خلال الدرس، ولم يكن للأسئلة أحياناً علاقة بالدرس فكنا نسأله في الأحداث العالمية والأحداث المحلية والوطنية والأمور الاجتماعية وما يظهر الصحف من أخبار وغير ذلك، ولهذا لم يكن الأستاذ القباني مدرساً فحسب بل كان

مربياً، ولم يكن أستاذاً للرياضيات فحسب، وإنما كان يتعهدنا أيضاً كمواطنين يشعل فينا روح الوطنية ويذكيها.

وأذكر ذات مرة أن وجدني جالساً أطالع على مقعد في فناء مدرسة أسيوط الثانوية، ثم سألني كم الساعة الآن؟ فقلت له الساعة الواحدة والربع، ثم سأل ومتى تناولت غذاءك؟ قلت له منذ ربع ساعة، فقال إذن لا يجوز أن تطالع وإنما يجب أن تريح ذهنك بعد تناول الطعام، وعلل كلامه تعليلاً علمياً مقنعا، وهكذا لم يكن يترك فرصة داخل حجرة الدرس أو في فناء المدرسة أو خارج المدرسة إلا جعلنا نتعلم فيها شيئاً ذا أثر دائم في حياتنا.

لهذا كان والداً مربياً ومدرساً وأخاً، وكان يشعر أن كل واحد منا ذخيرة بشرية يجب أن يستنبط وأن تعمل، وكنا نشعر أنه جعل نفسه مسئولاً عن كل واحد منا.

عين الأستاذ القباني مدرساً للرياضيات في مدرسة أسيوط الثانوية عام (1919)، وكان يعلم شقيقي المرحوم الدكتور محمد ثم علمني في عام (1922م1923)، وهنا توثقت بيني وبينه علاقة المعلم بالتلميذ، وكنت أزوره في بيته من آن لآخر لاستمتع بمناقشاته وأحاديثه وأتغذى بها وكان يشجع هذه الزيارات، ثم حدث في صيف (1923) أن سمعت إشاعة بأنه سينقل للقاهرة فحررت لوالدي خطاباً "وقد كتبت له لأني لم أكن أجرؤ على مشافهته في موضوع قد يحتاج إلى أخذ ورد" أقول له إن أسيوط للمدرسة التي سيعلم فيها في القاهرة إذ أنه أحول من مدرسة لمواصلة التعلم في أسيوط بعد نقله منها، فقال لي والدي لا تتعجل الحوادث"، وفي نفس الوقت كنت قد كتبت للأستاذ القباني وكان في إجازة بالقاهرة خطاباً أبثه فيه مشاعري لما سمعت من أخبار النقل، وكتبت الخطاب لغة مراهق يتحدث إلى بطله، فرد على بخطاب رقيق أراد مني أن أكون أقرب إلى واقعية النضج مني إلى خيال المراهقين، وكان للخطاب أثر.

ويمكنني أن أورد أمثلة لا حصر لها توضح أن الأستاذ القباني كان منذ عرفته مربياً تجري روح التربية الكاملة في دورته الدموية بل ولها عنصر في كل خلية من خلايا جسمه وروحه.

لذلك فإنه يمكنني أن أخرج عن الأسلوب المتبع في علم النفس عند تحليل الشخصيات، فبدل أن أقول إنه كان انبساطيا وعصابيا، أو كان ذكيا أو غير ذلك، فإني أقول إنه كان الأول والوحيد في مصر الذي اتصف بالشخصية التربوية الكاملة، فكان تيار حياته، وتيار شخصيته التربوية متطابقين تمام التطابق.

**في محاضراته العامة:**

وأول محاضرة عامة سمعتها له كانت عن "إسحق نيوتن" ألقاها على جميع طلاب مدرسة أسيوط الثانوية ومدرسيها في عام (1921)، واتصفت محاضراته بسحر التأثير وقوته ودوامه، فما زالت عباراته في هذه المحاضرة ترن في أذني حتى الآن، ومال زلت أذكر أغلب أجزائها.

وكان حين يلقي محاضرة يكون أقرب إلى صاحب رسالة، يدعو إلى رسالته بقوة وهادفة، وقد انطبق هذا على كل محاضراته، فهكذا كانت محاضرته في مؤتمر التعليم الأول في دار العلوم عام (1925) حتى كان أول من دعا إلى توحيد التعليم الأولى والابتدائي، وقد سمعنا بعد ذلك بسنوات عديدة بنفس الفكرة تظهر في فرنسا وتظهر في كثير من البلاد الراقية الأخرى.

وكانت فكرة التوحيد تقوم على أساس تذويب الفروق الثقافية بين الناس، وتوحيد عقلية الشعب وتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وخلق عقلية مصرية متجانسة بعد أن كانت هناك عقلية المواطن الذي يخرج من الكتاتيب والأزهر وعقلية المواطن الذي يخرج من المدرسة الأجنبية وعقلية المواطن الذي يخرج من المدرسة الابتدائية الحديثة، وبين العقليات الثلاث يكاد ينعدم كل اتصال.

فالأستاذ القباني نادى وعمره (27) عاما بأعلى صوته بخطة عملية لخلق عقلية مصرية موحدة متجانسة تعمل عملها الوطني في قوة كوحدة.

طلعت هذه المحاضرة في كتيب مستقل ملحق بصحيفة المعلمين، وهي الصحيفة التي كان ينشرها إذ ذاك جماعة من خريجي المعلمين العليا ودار العلوم، أذكر منهم الأستاذ عبد الحميد حسن والأستاذ محمد علي مصطفى والأستاذ مصطفى أمين.

وهكذا كانت محاضراته الجريئة التي ألقاها في المؤتمرات المحلية والإقليمية والدولية، وكانت محاضراته الجريئة التي حلل فيها التقرير المشهور الذي أصدره المرحوم الأستاذ نجيب الهلالي حين كان وزيرا للمعارف عام (1944)، وهي المحاضرة التي رد عليها بعد ذلك الأستاذ الدكتور/ طه حسين، وأثارت المحاضرتان تيارين فكريين كان لهما أثر كبير في تاريخ التعليم في مصر.

**العربي المحبوب:**

لم يكن الأستاذ القباني أستاذا يلقي محاضرات في التربية ودورسا في علم النفس، وإنما كانت روحه مشبعة الأسلوب التجريبي العلمي الصحيح، فقد حدث أنه نقل في عام (1924) من مدرسة أسيوط الثانوية إلى مدرسة المعلمين الثانوية، وسرعان ما نقل بعد ذلك إلى مدرسة المعلمين العليا حيث كان يدرس بعض الوقت علوم رياضية، ولكنه كان يدرس أغلب الوقت علم النفس والتربية والتربية العملية.

ولهذا فإني ما كدت أترك المدرسة الثانوية عام (1924) حتى قابلته مرة أخرى في مدرسة المعلمين عام 01925)، على أن علاقتنا خارج دور التعليم كانت مستمرة فكنت أزوره وأخي المرحوم الأستاذ محمد فؤاد جلال بين آن وآخر في مسكنة بشارع أبي السباع القريب من شارع محمد فريد، وفي مسكنة بعد ذلك في مصر الجديدة، وكان كما قلت يرحب بزياراتنا ويجلس إلينا، ولعله رأى فينا مادة بشرية صالحة للتشكيل الذي كان يرمي إليه.

كان يعلمنا التربية العملية خلال عامي (27/26 – 28/27) وقد جعلنا ننظر إلى كل درس على أنه تجربة علمية، وكان يعقد معنا مناقشات جماعية بعد كل درس لابد أن تترك كل منها أثراً فعالاً في كل واحد من تلاميذه. وبهذا كون أول مدرسة من المعلمين المربين، وأعد نفسي أيضاً أحد أبنائه البكر في ميدان التربية.

وهنا أذكر سراً لم أذكره قبل اليوم، وهذا السر هو أني كنت طول حياتي مولعاً بالعلوم الرياضية، وكانت مبرزا فيها، وقد كان للأستاذ القباني أثره في هذا، ثم حدث أن علمني علم النفس والتربية فأولعت بهما حتى أهملت الرياضة بعض

الشيء، ثم تفوقت فيهما أكثر من تفوقي في الرياضيات، ولهذا سافرت عضواً في البعثة للتخصص في علم النفس مع أن ولعي الأول والأقدم كان بالعلوم الرياضية.

وفي صيف عام (1928) زرته في بيته بمصر الجديدة وتحدثنا في موضوعات البعثة، وقلت له إن الوضع يقتضي أن أسافر لدراسة علم النفس، فقال ولكن ولعلك الأول بالرياضيات، فقلت له "تشوف" فهز كتفيه بما يدل على موافقته، وكانت موافقته مهمة لي من الوجهة النفسية فلم أكن أحب أن أسير في طريق أرى أنه غير راض عنه.

واستمر الأستاذ القباني يدرس التربية العملية وعلم النفس والتربية في المعلمين العليا، وفي عام (1929) جاء إلى مصر الأستاذ أدوارد كلاباريد العالم النفسي السويسري المشهور، فكان طبيعيا أن يلازمه، وأجرى معها سلسلة من التجارب التربوية والنفسية، واشتراكا معا في وضع أسس معهد التربية، وبذلك كان البناء الأول لكل الحرية التربوية الحديثة في مصر والعالم العربي من خليجه إلى محيطة، وكان للأستاذ القباني ولتلاميذه آثارهم خارج هذا النطاق ولا أذكر صلاته القوية بد ذلك "ببوفيه"، وكنت سكرتيرها مدة طويلة من الزمان، ولا صلاته القوية "بسبيرمان" ونحتاج إلى مجلدات لنصف ما كان يحدث مع هؤلاء جميعا.

ولكن الذي يهمني أن أذكر شيئا آخر – فأمثال هذه الصلات يمكن أن تقع لكل إنسان، وهذا الشيء هو أنه بعد أن درس التربية قليلة رأي ضرورة وجود مدرسة يكون حرًا في أن يطبق فيها ما يعرفه من أسس ومبادئ، فقد تشبع بآراء "جون ديوي" ومن تبعه من تلاميذه أمثال "كلباترك" و "بودا" و "رج" وغيرهم، ولم يقنع بتدريس آراء ديوي ونظرياته وإنما أرد أن يضعها موضع التطبيق وهنا يأتي المثل الرائع للإيمان بالرسالة.

بدأت الفكرة عنده عام (1932) وقوبل بالسخرية والاستهزاء من جميع من كان في وزارة المعارف ولم يشجعه إلا شخص واحد وهو المرحوم الأستاذ/ عبد الفتاح صبري.

ولم يكن عبد الفتاح صبري بمفردة كافياً لمساندته، ولذلك بدأ بالفكرة متواضعة كل التواضع، بدأت ببضعة فصول سميت بالفصول التجريبية وضعت في الطابق تحت الأرض بمعهد التربية الذي كان موجود في ذلك الوقت في حدائق الأورمان.

وكلمه حق أقولها إن مدير معهد التربية في ذلك الوقت الأستاذ أمين سامي حسونة، كان يشجعه كل التشجيع.

وكلمة حق أخرى أقولها وهي أن ما من فكرة صغيرة أو كبيرة دفي الحقل التعليمي كوسيلة إصلاح منذ عام (1935) حتى الآن إلا وكانت نابعة من عمل الأستاذ القباني وعمل تلاميذه في الفصول التجريبية والمدارس النموذجية، وهذا كلام يمكن إثباته بالوثائق والأدلة إثباتا قاطعا.

فالبناء البشري الهائل الذي يعمل في مصر لآن والذي سيظل يعمل يرجع كثيراً من فضلة إلى الأستاذ إسماعيل القباني.

**رسالته الوطنية:**

ولم يكن الأستاذ القباني يعمل بوحي تربوي علمي نابع من أبراج العلماء وإنما كان واقعيا وكان تجريبيا، وكان فوق هذا وذاك وطنيا مخلصاً لم يعبر عن وطنتيه في ميدان السياسة ولكنه عبر عنها في ميدان التربية.

وحدث ذات مرة أن كان يمر بأزمة نفسية بسبب محاربة أعماله وأفكاره، وطالما مر بأزمات نفسية بهذا السبب، وكنت أجلس إليه في منزله فوجدته حزينا مهموما فقلت له وما يحزنك؟ ولا يمكنك أن تفعل شيئا، وقد أديت واجبك حق أدائه فقال: "إني حزين على هذا البلد"، ويقصد البلد وأجياله وما يترتب على ما يطرأ على نظم التعليم من تغييرات ضارة بحسب رأيه.

وتبينت لي رسالته الوطنية حين وضع رسالة "باللغة الإنجليزية عنوانها: "مائة عام في التعليم المصري"، وكانت هذه الرسالة وثيقة في يد الوفد الذي ذهب لهيئة الأمم المتحدة عام (1948) برئاسة المرحوم/ النقراشي باشا وإني أنصح

بترجمة هذه الرسالة ونشرها بالعربية فهي تبين الوضع في أحوال التعليم قبل الاحتلال الإنجليزي وأثناء الاحتلال ثم منذ نيل الاستقلال عام (1922).

وقد وضحت وطنتيه في رسالته حين تحدث عن فلسفة جهوده منه عام (1925) لتوحيد التعليم الأولى والابتدائي وحين أوضحت جهود لإقامة مثل تعليمية عقلية واقعية في المدارس التجريبية والنموذجية كذلك تبدو وطنتيه حين اشترك بين عامي (1924/1920) مع الأستاذ محمود فهمي النقراشي مدير التعليم بمجلس مديرية أسيوط والأستاذ عبد الرازق السنهوري وكيل النيابة في مشروعات عملية للتعليم ومحو الأمية.

**إيمانه بالتربية الاستقلالية:**

وكان يرى التربية الوطنية الاستقلالية، وهذا وهذه سياسة التي درج عليها في المدارس التجريبية والنموذجية فكان أساس عمله أن يتربى التلاميذ تربية استقلالية.

وفي أحد الاجتماعات السنوية في مدرسة النقراشي النموذجية قلت مرة إن هذه مدارس لا يتعلم فيها التلاميذ فحسب، وإنما يتعلم فيها المدرسون والآباء والنظار والأساتذة وتتعلم فيها مصر بأجمعها ممثله في هؤلاء جميعاً.

وحين قلت يتعلم قصدت يتربى، وإذا أردت أن أشرح معنى هذا طال بي الكلام، ولكن أذكر كيف اشترك الآباء في إنجاز بناء المدرسة، وكيف لعب للآباء كرة القدم مع أبنائهم، وكيف خلع مدرس اللغة العربية – وكان متزمتا – ملابسه ونزل إلى الفناء ليجري مع الأطفال ويلعب.

تربية اجتماعية، وعملية، واستقلالية، ووطنية، تربى الشخصيات، ومع ذلك لم تهمل العلم بل قطعت في العلم مراحل لا يسهل تصديقها.

وفكرته في التربية الاستقلالية – كأساس لصيانة استقلال البلاد وتدعيمه – كانت جزءا من كيانه، فقد اشتراك في جماعات الطلبة في مدارس أسيوط الثانوية حتى أنه كون جمعية عام (1920) اسمها "الجمعية الزراعية" وكانت هذه الجمعية تزرع، وقد كان لها محصول من البطاطس وغير البطاطس، وكانت تفخر به وتبيعه

ولم يكن محصول البطاطس مقصوداً لذاته وإنما كان المقصود التربية الاجتماعية الاستقلالية التعاونية العملية الواقعية.

وبهذه الروح ذهب إلى مدرسة المعلمين المتوسطة ثم المعلمين العليا وجعل نفسه مسئولاً عن جمعيات الطلبة ومجلة المدرسة، وبهذه الروح أنشأ معهد التربية وتعهد المعهد وتعهد المدارس النموذجية وتعهد أجيال المربين.

**في خارج معاهد التعليم:**

وكانت له حياه خصبة غاية الخصوبة في خارج المعاهد والمدارس، كان عضوا بارزاً في جماعة الرواد، وعضواً أساسياً في لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان يهتم بمدارس الخدمة الاجتماعية – وكان يحرر قسم التربية في مجلة الثقافة – وكان يحرر صحيفة التربية وكان يوجه رابطة الخريجيين وحين أعد جوانبه خارج معهد التربية وخارج عمله كمستشار أو وزير فإنني أذكر قليلاً من كثر، ولكن المهم أنه كان عضواً بناء فحين عدت من البعثة في عام (1934) إصطحبني معه يوما لأرى نشاط الرواد وشرحه لي وطلب مني أن أتطوع للعمل فتطوعت ثم عمل على ضمي للجماعة فانضممت وعملت سنوات طويلة مستمرة، وكان معنا في هذه الجماعة الدكتور/ وليم سليم والمرحوم فؤاد جلال والأستاذ عبدالهادي والدكتور/ عبد العزيز سامي والأستاذ/ أحمد حسن وكثيرون، "بل وقليلون آخرون "وبعد أن استقررت في هذه العضوية أخذني للجنة التأليف، مره بعد أخرى فعلها مع من كان يرى فيهم صلاحية من تلاميذه، وهذه شيء أفخر به.

وكان يعمل في كل ما يعمل بقوة واندفاع وإصرار وإيمان.

**من صفاته الشخصية:**

وحين يطلب إلى أن أحلل شخصيته بالمعنى الذي يرتضيه علم النفس فإني أرى في حياته العقلية ذكاء يوافقني كل إنسان على أننا لم نر ذكاء يدانيه ونعرف جميعا القصة التي تحكي عنه وسألناه عدة مرات عن صحة هذه القصة أو خطئها فلم يعط جوابا لأن فيها شيئا من المدح لذاته وكان يكره هذا أشد الكراهية.

والقصة أنه كان تلميذا في كتاب لفقيه في أسيوط اسمه الشيخ سيد القيط عليه رحمة الله "وكان كتابه في العتبة الزرقاء قريبا من مسجد جلال الدين السيوطي"، ويقال إن سعد زغلول زار هذا الكتاب في السنوات الأولى من هذا القرن وسأل الأولاد سؤالاً نصه كما يأتي: يوجد على شجرة عشرة عصافير، وأخذ ولد حجرا وقذفه على الشجرة فأصاب عصفورا فوقع، فكم عصفورا يبقى على الشجرة؟ فقال الأولاد تسعة، ولكن ولد صغير ظل رافعا يده، فسأله سعد "وأنت يا شاطر" فقال لا يتبقى عصفور واحد لأن بقية العصافير ستخاف وتطير.

وتفرس سعد في الولد ووجد فيه علامات النجابة الخارقة ثم سأل عنه الشيخ سيد فعلم أن والده لا يستطيع أن يعلمه في المدرسة الابتدائية لرأفة حالة فمنحه سعد مجانية في المدارس الابتدائية الحكومية، وكانت هذه أول مجانية تمنح، وقد كسرت بها قاعدة تعميم المصروفات على كل من يتعلم بحسب السياسة الاستعمارية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ومنذ هذا التاريخ انفتح الباب قليلاً لمجانية محدودة، ثم اتسع الباب إلى أن وصلنا إلى ما نحن فيه الآن.

وبهذا كان لذكاء التلميذ إسماعيل بداية لأثر فعال في حياة الأمة بأسرها، وسواء أكانت هذه القصة صحيحة أو لا فإنه لا جدال في أن الأستاذ القباني كان أذكى من عرفت.

ولفرط ذكائه كانت قدرته العقلية الأخرى على درجة بارزة، فكان يستعمل ذكاءه استعمالاً جيداً في كتاباته وخطاباته ومحاضراته ومحاور مناقشاته.

وكانت حياته المعرفية خصبة غاية في الخصوبة، فقد اتصفت بالاتساع والشمول إذ كان يحيط بأمور السياسة وأمور الفن التصويري، وكان يجادل في اللغة وفي التاريخ، وهذه ليست عبارات مرصوصة وإنما كان يفعل هذا حتى يلم كل ما تحويه عقلية الأساتذة في معهد التربية والمدارس النموذجية، ولم تكن حياته المعرفية تمثل تكديساً لألوان المعرفة بل كانت مترابطة في ذهنه ترابطا منطقيا وكانت مصنفة تصنيفا واضحا، هكذا كان ذكاؤه، وهكذا كانت معارفه وكانت قدراته.

أما حياته العاطفية فإنها كانت غنية حساسة، فكان يفرح لفرح أصدقائه وتلاميذه فقد بادر بالإبراق إلى في قوص حين رقيت للدرجة الرابعة وكانت غيبتي فيها قصيرة، وكان يحزن لوفاة صديق حزنا شديدا وكان حزنه يجعله، مضطربا للصوت الجميل والمنظر الخلاب، وكنت أره في عواطفه وانفعالاته إنسانا بكل معنى الكلمة، فلم يؤثر جبروت عقله في إنضاب عاطفته وانفعالاته، بل أن قوة عاطفته كانت على مستوى قوة عقلة – كان فيها الشمول، وفيها الرقة، وفيها القوة وأعرف أن أناسا كانوا يستغلون فيه رقته.

وكان يقف أحيانا بين ميله العاطفي وعمقه المنطقي موقف الحائر فكان رحمه الله عليه من آن إلى آخر يأخذ رأيي في بعض الأشخاص، وكنت أدهش كيف أن واحداً بهذا العقل وهذه الخبرة يأخذ رأي واحد مثلي، وحين كان يأخذ رأيي كنا نتفق أحيانا ونختلف أحيانا وكان أحيانا يأخذ برأيي وأحيانا لا يأخذ له، ولكنه كان يأخذ به في أغلب الأحيان، وكنت أخشى أن يكون هذا عطفاً منه على ومراعاة لإحساساتي.

هذه عاطفته وتلك معرفته، أما إرادته فكانت غاية في الصلابة والمضاء، ذلك لأنه كان يربط دراسته وعاطفته بأهدافه، وكانت أهدافه، دائما أهدافاً عامة عالية، ومن هنا جاءت صلابته وإصرار ومضاؤه.

وبسبب هذه الصلابة كان يختلف مع بعض الناس على بعض المسائل الشخصية الفردية، ومن هنا كان هناك أناس لا يحبونه وهؤلاء هم أصحاب النزاعات الشخصية الفردية الذين لا يرغبون في التضحية بالأمور الفردية في سبيل الأمور العامة، وطبيعي أن يكون لمثل الأستاذ/ إسماعيل القباني بعض من لا يحبونه، ولكن الذي لا شك فيه أن هؤلاء الذين لا يحبونه كانوا يحترمونه أشد الاحترام بل وربما لم يحترموا شخصا آخر في ميدانه مثله، فالاحترام شيء والمحبة شيء آخر، ولم يكن يهمه رحمة الله أحبه الناس أم لم يحبوه ما دام يعمل مخلصا لمصلحة عامة.

**نقده لنفسه:**

دأب الأستاذ القباني على أن يصل لرأية بعد دراسة وتحمص وإقناع، ولذلك كان يتمسك برأيه هذا ويدافع عنه، ولهذا كان في ميدان الرأي محاربا، شديد المراس، دقيق الخطة يعتمد على أساليب الكر والفر والتحليل والتجميع والتركيز والتخفيف، وكان في أغلب مناقشاته ينتصر على من أمامه، وكان لتوالي هذه الانتصارات أثر كبير في زيادة اعتزازه برأيه وشدة تمسكه به.

ولكنه مع هذا كله شديد النقد لنفسه وقد ظهر هذا واضحا عندما كان يجلس ليكتب موضوعا ما، فما كان يبدأ في الكتابة حتى يشطب ما كتب، ثم يعيده، ثم يمزق الأوراق ويلقيها في السلة ثم يبدأ من جديد وهكذا، ولذلك كانت عملية تدوين آرائه عملية قاسية من الوجهة النفسية.

وكان موقفه مما يكتب هو نفس موقفه مما يلقيه أمام الناس في محاضراته ولعل شدة نقده لذاته وصرامته مع نفسه هي التي كانت تقلل من إنتاجه المكتوب المنشور، فقد كان ما نشر أقل بكثير مما كان يمكن أن ينشر.

والطريقة التي كان يعامل بها نفسه كان يعامل بها تلاميذه فكان يرى في تلاميذه جوانب طيبة وكان يرى في أرائهم انعكاسه لآرائه، وفي طريقة تفكيرهم انعكاسه لطريقته، ولكنه كان يشبعهم نقدا، فما كتب واحد منهم شيئا إلا ونقده نقدا شديدا أو عدله، وما ألقى واحد منهم حديثاً إلا أظهر عليه بعض الاعتراض.

ومعنى هذا أنه كان يعتز برأيه ويدفع عنه، ومع ذلك فإنه كان ينقده ليصهره، وكذلك كان يعتز بعقلية تلاميذه ويفخر بهم، ولكنه كان ينقدهم أشد النقد ويضعهم في بوتقته ليشكلهم بالشكل اللائق.

وكنا نسعد كل السعادة بكلمة تشجيع منه، ولم نكن نغضب لنقده وأن كنا قد شعرنا أحياناً بالإرهاق من كثرة ما يقتضيه هذا النقد من عمل وجهد.

وهنا أقف لحظة لأقول إن الأستاذ لم يكن ينعم كثيراً بالراحة ولا يسعد بها إذ كان يرهق نفسه ويرهق تلاميذه حتى كلف تلاميذه أكثر مما يطبق الناس، لم يكن رحمة الله يطيق الراحة لنفسه ولا تلاميذه، فقد كان في عمل مستمر، وكان يريد أن

يراهم جميعا في عمل مستمر، ولم يكن بذلك يقصد الإرهاق بالإرهاق، وإنما السير وراء هذا كله أنه كان يجاهد في سبيل رسالة وكان يدفع تلاميذه معه ليجاهدوا في سبيل نفس الرسالة، والجهاد يحتاج إلى جهد، واقتضي أن يكون الإنسان في عمل دائم، وأن يكون جنوده في عمل دائم.

وأني لأعتذر في ختام هذا المقال لأني وأن كنت قد حاولت أن أصف شخصية مدرسي وأستاذي وزميلي وصديقي وأخي، فلا شك أني لم أكن موفقا كل التوفيق ولاشك أني تركت جوانب هامة كثيرة، وأقول بحق إنه يصعب علينا الإحاطة بجوانب هذه الشخصية الإحاطة كلها.

ولكننا والأجيال القادمة سنظل نعيش على مبادئه وآرائه وأفكاره، وستبنى التربية منها صروحها الصلبة الخالدة، ولنا في هذا قليل من السلوى والعزاء.